

رمضان بسطاويسي محمد

يقدم سعيد توفيق- وهو من أبرز المساهمين في صياغة المشهد الثقافي والأدبي في مصر - نص سردي بالمعنى المعاصر للسرد الذي لا يكتفي بسرد الاحداث التي مر بها، وانما يقدم أيضا معان هذه المواقف وفق التحليل الفينومينولوجي الذي يتقنه، رغم انه كتب على غلاف الكتاب سيرة ذاتية فلسفية، ولذلك يمكن قراءة الكتاب من أكثر من منظور، فهو سيرة، وهو تحليل فينومينوجي لفلسفة الحياة، وهو أيضا رواية من منظور ما بعد حداثي، مثل رواية أفروديت لإيزابيل الليندي، ونتيجة لهذا كله فهو كتاب استثنائي يند عن أي تصنيف. ويقدم فيه تأملات عميقة في ظواهر الوجود والحياة والفن، تجعل منه دعوة للتأمل وتدريب عليه، وتجعل قراءة الكتاب ممتعة وعذبة، وتترك في الوجدان شعورا صافيا تجاه الحياة والبحر والروائح والأمكنة والحياة.

إنه كتاب كبير يقع في ٣٥٢ من القطع المتوسط كتبه أستاذ علم الجمال في جامعة القاهرة بأسلوب عذب حتى يكون ممتعا للقارئ العادي باعثا على التأمل والمراجعة للقارئ الواعي. وهو يذكر بوضوح في الكتاب بأنه لا يريد أن يكتب عن خبرات شخصية لا تعني أحدا غيره، إلا أنه يريد أن يكتب عن معاني الخبرة الإنسانية نفسها وجوهرها التي عايشها غيره من البشر ولم يفصحوا عنها.

والكتاب يأخذنا في عوالم الدكتور سعيد الخاصة منذ طفولته في حي السيدة زينب العريق حتى رحلاته خارج الوطن وهو يعدد الأشياء التي تفتنه وتدفعه على التأمل مثل البحر وأسراره والسماء ونجومها والمغنى الأصيل والطعام المصري والصحراء والاماكن، فهو يأخذنا في رحلته مع الحياة وكل من قابلهم وأثروا فيه منذ جدته الصعيدية التي كانت تصحبه إلى دور العرض السينمائي حتى ريس المركب في رحلاته في البحر الأحمر وتعرفه على الحياة البحرية.

يأتي الكتاب في سياق السير الفلسفية التي كتبها المشتغلون في الفلسفة في الفكر المصري المعاصر مثل "الأيام" لطف حسين، و"أنا" لعباس محمود للعقاد، و"حياتي" وفيض الخاطر" لأحمد أمين، و"تربية سلامة موسى" لسلامة موسى، و"اوراق العمر" للويس عوض، و"ماذا علمتني الحياة" لجلال أمين و"سندباد مصري" لحسين فوزي و"قصة نفس" و"قصة عقل" لزكي نجيب. وغيرها مما هو موجود أيضا في التراث الفلسفي العربي وقد درستها سوزان سنتاج في كتابها "الطفولة في السيرة الذاتية" وترجمه طلعت

الشايب وفي التراث الفلسفي الغربي توجد نماذج عديدة من السيرة الذاتية الفلسفية مثل كتابات جان جاك روسو ونيتشه .

ويأتي أيضا مستوعبا لتاريخ وسياق السيرة الذاتية الفلسفية، لأن هناك خصوصية لهذا النوع من السيرة الفلسفية لأنها تقوم على أسس ومفاهيم مختلفة عن السيرة العادية. تُعرّف "السيرة الفلسفية" بأنها تقدم فهما للحياة الإنسانية، وهي ليست فقط شكلاً أدبياً من أشكال التعبير بل أيضاً شكلاً فلسفياً للتعبير. إنه يدل على أن السيرة الفلسفية لها مجموعة متنوعة من السمات، والتي تحد من تطبيقات التسلسل الزمني، وتتخطى مبادئ تنظيم المواد السيرة الذاتية بطريقة خطية. وفي هذا السياق، يتم تحليل مفاهيم مثل "مسار الحياة"؛ وكشف أسس وحدة السيرة الذاتية وفق البحث عن المعنى وراء الأحداث.

إن وحدة محتوى السيرة الذاتية تحددها النظرة الفلسفية للعالم. هذا لا يعني تحويل السيرة الذاتية إلى نوع من النظرية الفلسفية، بل يعني تصوراً للحياة وفقاً لمبادئ أو أفكار معينة كما هو واضح في كتاب "الخاطرات" مثل النهج الفينومينولوجي في التحليل والتمييز بين الوجود الحقيقي والوجود الزائف. ويمكن اقتراح فكرتين رئيسيتين حول مفهوم تصور الحياة في السير الذاتية. أولاً، الحياة كدراما، تكون هدفها إبراز تناقضات النظرة إلى العالم مثل الوجود الحقيقي والوجود الزائف، ويتميز مسار حياة الفيلسوف بطابعه الخاص: لأن كتابة السيرة في حقيقة الأمر هي عملية درامية لتشكيل (الذات)، والمعرفة (الذاتية)، والتي من المستحيل أن نراها من منظور خطي واحد بينما نواجه الطبيعة غير الخطية للأحداث (الأفكار وتحليل المشاعر محل الأحداث، إذا كانت ذات خبرة عميقة وشعرت بها الشخصية) ومع الطبيعة غير الخطية للذاكرة، تُفهم على أنها فعل إبداعي. ثانياً، فكرة السيولة للإنسان، والتي لا يمكن تخطيطها أو اصطفاؤها، ولكن يمكن نقلها بوسائل مثل السرد الفلسفي التشكيلي.

غالباً ما تعتبر مفاهيم "السيرة الذاتية" و "مسار الحياة" متطابقة. لكن النهج الذي يحدد السيرة الذاتية للفرد ومسار حياته مع تسلسل الأحداث لا يمكن أن يعكس بالكامل خصوصية النوع أو نوع السيرة الذاتية نفسها، لأن سرد الأحداث له أيضاً مكانه في القصص والصور.

تتميز السيرة الذاتية بالتركيز على المحتوى الفردي والشخصي، والانتباه إلى دورة حياة الإنسان الفردية. تدعي أنها تجمع في حد ذاتها بين حقائق وقائع العالم الداخلي للفرد. لذلك، في ضوء مهمتها لتغطية "الواقع الكلي للوجود الفردي"، تجمع السيرة الذاتية بين حياة الفرد والعالم الداخلي. في مثل هذه الحالة،

يظهر مسار الحياة كشيء خارج السيرة ولا يقتصر العالم الداخلي على العالم النفسي للشخصية، لكنه يفترض كياناً روحياً لجميع الصفات الشخصية للإنسان.

غالباً ما يتم بناء مسار حياة الشخص زمنياً. في الواقع، المبدأ الزمني، للوهلة الأولى، هو النهج الأكثر بساطة والأكثر طبيعية في تنظيم مادة السيرة الذاتية. ومع ذلك، نجد السير الذاتية منذ العصور القديمة لا يستند إلى التسلسل الزمني ولكن على فئات أو عناصر أخرى مثل تحليل المكان والزمان والشخصيات والروائح والأعمال الفنية.

ولكي تكون فلسفياً، يجب اعتبار سيرة الفيلسوف نوعاً من الفلسفة. السمة الرئيسية للسيرة الفلسفية هي (الفهم الفلسفي) والنظر لحياة الفرد كنص بشري يمكن فهمه ولذا يجب تفسير البشر. موضوع السيرة الفلسفية ليس بالضرورة الفلاسفة السابقين ولكن يمكن "اعتبار شخص ما فيلسوفاً بهذا المعنى (مثل النماذج البسيطة التي يعرض لها سعيد توفيق مثل الفلاح الذي يزرع أشجار المانجو في حديقة البيت) يكفي أن نراهم كشخص له فكر - سواء تم التعبير عنه في الشعر أو الموسيقى أو الرسم أو الخيال أو يعمل على الفلسفة - من المهم والمثير للاهتمام أن نفهم".

وفي سياق عملية إعادة بناء السيرة الذاتية هذه، لا تتجلى فقط شخصية الفرد الذاتية في السيرة الذاتية، بل هي أيضاً نظرة الفرد والمؤلف الفلسفي للعالم (كاتب السيرة). نتيجة لذلك يمكننا أن نرى صورة جديدة جذرية للفيلسوف أو الشاعر أو العالم المعروف. عادة ما تظل هذه الصورة غير مكتملة، ويؤدي انفتاحها على الفلسفة من قارئ السيرة الذاتية. لكن هذا النهج مخوف بالمخاطر المتمثلة في تقديم الحياة الحقيقية لموضوع السيرة إلى النظرة الفلسفية لمؤلف السيرة الذاتية. أحد الشروط لفهم فلسفي لحياة الفرد هو تقارب السيرة الذاتية مع موضوع السيرة الذاتية (بالمعنى الروحي أو العقلي). لكن للسيرة الفلسفية مجموعة أخرى من الميزات، التي تحدد استحالة إحاطتها في إطار التسلسل الزمني أو وصف مسار الحياة المقدم فيها من خلال مفهوم المسار.

على الرغم من أن السيرة الفلسفية، تنجذب إلى حد ما، مثل أي سيرة ذاتية، إلى مخطط مميز معين، كقاعدة عامة، لا تنسجم مع هذا المخطط بدقة. تنطبق هذه الملاحظة حتى إلى حد كبير على السيرة الذاتية الفلسفية. التعريف الأدبي للسيرة الذاتية يركز على أنه فهم الشخص لمسار حياته، والذي يتلقى شكلاً أدبياً من التعبير، معروف جيداً. مثل السيرة الذاتية لفريدريش نيتشه (١٨٨٨)، نُشر لأول مرة عام ١٩٠٨، دراما حياة أفلاطون بقلم فلاديمير سولوفيف ٤ (١٨٩٨)، المعرفة الذاتية: مقال في

السيرة الذاتية الفلسفية بقلم نيكولاي بيرديايف ٥ (١٩٤٠ ، نُشر لأول مرة عام ١٩٤٩) وفي البحث عن جوته من الداخل بقلم خوسيه أورتيجا جاسيت (١٩٣٢). وتحاول السيرة الذاتية هذه محاولة لترجمة التجربة الوجودية إلى شكل سردي

السيرة الذاتية لنيته كعمل في تصور الحياة إحدى المحاولات الأولى لإنشاء سيرة فلسفية وصورتها غير الخطية تنتمي إلى نيته. لقد زُعم أن هذا ليس سيرة ذاتية بل "قطعة رائعة من الاحتفال الذاتي" إن "السر" ، في كتابات نيته ، ليس شخصيًا ، لكنه بمثابة تعبير عن أزمة الثقافة الأوروبية التي كانت سائدة ، وفي حالة كتاب سعيد توفيق حيث تتشابك الحياة والفلسفة عن كذب ويصبح واحدا من مبدعي التأمل في السيرة الذاتية المعاصرة ، كما سيكون من الخطأ اعتبارها بمعزل عن أعماله وبحوثه السابقة وعن كتابه نشيج على خليج. من ناحية أخرى ، دعا سعيد توفيق مرارًا وتكرارًا إلى وحدة الحياة والإدراك ، بافتراض أن الفلسفة الحقيقية الوحيدة مستمدة من حياة خالقها من الجدير بالذكر أنه يرتبط بأعماله ليس فقط مع تواريخ محددة ، ولكن أيضا مع دواله الداخلية.

في السيرة الذاتية الفلسفية الحالية ، لا يمكننا أن نتجاهل السياق الشخصي والوجودي.

لعل العلامات المميزة لمسار حياة سعيد توفيق هي تكرار العديد من القيم الأساسية التي ظل مخلصًا لها طوال حياته. لكن في عدد قليل من الأماكن في نص سيرته الذاتية ، أبدى اهتمامًا بالأحداث غير المهمة ، بل يلفت الانتباه إلى "الأشياء التي قد تبدو مألوفة" ، والعناية بالتفاصيل - الطعام ، الموقع ، المناخ ، الترفيه ، كل هذا يشبه الاحتجاج على التجريدات الخاطئة ، مثل مفاهيم "الله" ، "الروح" ، "الفضيلة" ، "الخطيئة" ، "العالم السفلي" ، "الحقيقة" ، "الحياة الأبدية" ، التي سعت إلى عظمة الطبيعة البشرية. ومع ذلك ، هناك جانب آخر لهذه التفاصيل المحلية. إن النقاشات حول المكان والزمان والبحر والطبيعة هي فقط الخلفية التي تتكشف عنها الأحداث الدرامية الحقيقية في حياة الكاتب الروحية. في اختيار الغذاء ، والموقع ، والمناخ ، والترفيه ، يتجلى ، وفقا للكتاب ، غريزة الحفاظ على الذات.

عندما نحاول أن نجمع المحتوى السيرة الذاتية لـ إلى الوحدة ، سنواجه أصالة أسلوب المؤلف ، والتي لا تنسجم مع التعاريف والمخططات السائدة. كتب أندريه بيلي ، الذي يحدد طريقة عرض نيته بأنها "رمزية ثلاثية":

يتجلى عمق المؤلف الذاتي ، المتأصل في حياته في أحكامه عن نفسه ، وكذلك في تقييم العالم المحيط به ، وعلى الرغم من ذلك ، فقد تمت مقارنة سيرته الفلسفية مرارًا وتكرارًا بالعمل الموسيقي ، سيمفونية. "فن الإيقاع العظيم" ، الذي يميز أسلوب المؤلف (في تعريفه الخاص) ، في الجزء الخاص الذي كتبه عن الموسيقى.

السيرة الذاتية الفلسفية هنا هي ، تاريخ الروح والوعي الذاتي. ومضمونها الرئيسي هو عملية المعرفة الفلسفية ، التي لا تمثل ذكرى الماضي ، ولكنها الفعل الخلاق للحاضر. يتم تحديد قيمة هذا الفعل الإبداعي من خلال كيفية تغلبه على الزمن وينضم إلى الخلود. تهدف السيرة الذاتية الفلسفية إلى فهم الذات الفردية وفهم مصير الشخص.

يعترف المؤلف بأن بيانات السيرة الذاتية (في شكل ذكريات) موضحة بشكل تخطيطي. مهمتها هي إظهار جو تاريخه الروحي: المعرفة الذاتية تعني وجودي الشخصي ، وليس وجود إنساني آخر بحد ذاته. ويبين للقارئ عبر الكتاب "المعرفة الحقيقية بالنفس هي فهم ما حدث للعالم كما حدث معي" ليس التسلسل الزمني للأحداث ، ولكن مشاكل فلسفية حددت سيرته الذاتية الفلسفية: "أنا والعالم" ، "العزلة". التأمل. حرية. رفض الزيف في العلاقات الإنسانية ، "اكتشاف معنى الحياة" ، "عالم المعرفة الفلسفية" ، "الدراما الاجتماعية" ، وما إلى ذلك. تتناوب الذكريات مع الأفكار الفلسفية ، على الرغم من أن الأخيرة تركز لها مساحة أكبر بكثير. من خلال ذكر أسماء الفلاسفة ولقد كانت حياته مليئة بالعواطف والأحداث الدرامية ، الشخصية والاجتماعية على حد سواء "

السيرة الذاتية الفلسفية لسعيد توفيق لها طبيعة خاصة بها من الذكريات. ويمكن الإشارة إلى الانتقائية (الواعية وغير الواعية) للعمل من خلال الذاكرة وإلى الطبيعة النشطة للتحويل للذاكرة التي تحدد أن ذاكرة الماضي لا يمكن أن تكون سلبية أبدًا ، لا يمكن استنساخها تمامًا. الذاكرة السيرة الذاتية هي تبديل للذاكرة والنسيان. لذلك ، يعرف المؤلف اتجاه ذكريات السيرة الذاتية على النحو التالي: سوف تكون ذاكرتي في حياتي وطريقتي نشطة بوعي ، ثم سيكون هناك جهد خلاق من أفكار ، معرفتي اليوم. بين وقائع حياتي والكتابة عنها يأتي فعل الإدراك ، الذي يهمني أكثر. لذا في سيرته الذاتية ، تتحول الأحداث ، التي يمكن اعتبارها من منظور الزمن التقليدي ، إلى تجربة شخصية وتأخذ مكانها الخاص والمتميز للغاية في دراما حياته.

الفكرة الفلسفية للحياة ، مشروطة بالبنية الخاصة للسيرة الذاتية ، وضعت في أسسها. يتم التعامل مع الحياة في هذه الحالة مثل الدراما بالمعنى الحقيقي للكلمة ، صراع من أجل أن يكون حقًا ما هو موجود في مشروع حياتنا. إنها الوحدة الدرامية بين الذات والعالم. تشكل العلاقة بين الذات والعالم مساحة حيث "الفرد ، العالم و ... كاتب السيرة". تحتوي هذه المساحة على "من الداخل" الحقيقي ، حيث من الضروري رؤية نفسه ولكن من داخل حياته أو الدراما).

مما لا شك فيه ، أن تفسير صورة الذات في كتاب الخاطرات قد يبدو مثيرًا للجدل ، ويختلف اختلافاً جذرياً عن سيرة وصف الحياة. ولكن هذه هي الطريقة التي قدم بها تجربته الوجودية للفن السيرة الذاتية والفهم الفلسفي ، ولدينا حالة أخرى من تقدم دراما الحياة عن طريق نوع السيرة الفلسفية.

حدد المؤلف الصورة المبنية على وجه التحديد لرجل يمر بفترة حياته كأحد أهم خصائص "شكل السيرة الذاتية". لكن مسار حياة الشخص ، الذي يُفهم على أنه تسلسل مستمر للأحداث ، هو شيء مختلف تمامًا عما هو معروض في محاولات السير الذاتية. في هذا النوع من السيرة الفلسفية ، فإن مسار حياة الكاتب له خصائصه الخاصة. إنها عملية مثيرة للتكوين (الذاتي) ، والمعرفة (الذاتية) ، والتي من المستحيل رؤيتها من منظور خطي واحد حيث توجد تعدد في المقدمات مع اقتران الجوانب الداخلية والخارجية (المعنى ، والغرض من الحياة والظروف الخارجية). نحن نواجه الطبيعة غير الخطية للأحداث (الأفكار تحل محل الأحداث ، لأنها لا تتحقق فقط في التفكير بل هي من ذوي الخبرة والشعور العميقين من قبل الشخصية) ومع الطبيعة غير الخطية للذاكرة ، التي تُفهم على أنها فعل إبداعي.

علاوة على ذلك ، فإن السرد الفلسفي ذاته عن حياة المرء أو حياة شخص آخر ، له أيضًا خصائصه الخاصة. لا تقتصر السيرة الفلسفية / السيرة الذاتية باعتبارها عرضًا فلسفيًا لدورة حياة الفرد ، كنوع فلسفي ، على "مخططات التعميم" يعتمد المبدأ التنظيمي للمواد التي تشكل وحدة السرد على النظرة الفلسفية للعالم للمؤلف. هذا لا يعني تحويل السيرة الذاتية إلى نوع من النظرية الفلسفية ، ولكنه يستلزم وضع تصور للحياة وفقًا لمبادئ أو أفكار معينة. لذلك ، فإن هذا النوع من السيرة الفلسفية كنوع من التفسير الفلسفي هو الذي يسلط الضوء على القيود في حالات معينة من النهج الزمني والتصنيف والوصف الخطي. في السيرة الفلسفية ، تنتهك الخطية في السرد التسلسل الزمني للأحداث ، ولا تنسجم مع أعمدة أو أقسام جامدة .

إن ترجمة التجربة الوجودية إلى شكل سرد في كثير من الأحيان (كما في حالة السيرة الذاتية الفلسفية لهذا الكتاب) تتطلب رفضاً واعياً لاتباع مخطط أو أي بناء نظري مسبق، لأنه لا يتعلق بالحياة بشكل عام ، ولكن عن حياته بشكل عام ، تجربته الشخصية (تكوين الذات ، معرفة الذات) ، وجوده الفردي.

تم توسيع حدود السيرة الذاتية وتحويلها إلى حد كبير ، منذ اللحظة التي توقفت فيها السيرة الذاتية عن قصرها على السيرة الذاتية ولكنها بدأت في إظهار قدرتها على رؤية العالم. لا يمكن تخطيط فكرة السيولة للإنسان ، المعبر عنها في السيرة الذاتية الفلسفية في الكتاب ، والمقالات التي كتبها المؤلف ، أو وضعها تحت عنوان أو بناء خطياً. عند تطبيقها على شرح الطبيعة البشرية ، يمكن نقلها بطريقة أو بأخرى عن طريق السرد الفلسفي التشكيلي .

وبقي لنا ان نشير غلي اهتمام المؤلف بعالم الروائح ورائحة الماء وهذا يذكرنا برواية العطر او العبق للكاتب الألماني باتريك زوسكيند صدرت سنة ١٩٨٥ وتتناول عالم العطور والروائح: وفيها يطمح بطل الرواية ان يصنع عطرا يمنحه "رائحة بشرية للقلة النادرة من البشر " ويحسسه بوجوده كإنسان بين البشر. في هذه المرحلة يصل غرونوي بطل الرواية إلى استنتاج مفاده أن "من يسيطر على الروائح يسيطر على قلوب الناس"، وهو ما سيلهمه إلى المثابرة في الوصول إلى ابتكار عطر يمكنه من الاستحواذ على البشر أما ما كان يشتهيّه فهو عبق بشر بعينهم: أولئك القلة النادرين الذين يلهمون الحب، إن بوسع البشر أن يغمضوا عيونهم أمام ما هو عظيم، أو مروع أو جميل، وأن يغلّقوا آذانهم أمام الألمان والكلام المعسول، ولكن ليس بوسعهم الهروب من العبق، لأنه شقيق الشهيق معه يدخل إلى ذواتهم.... لعبق الرائحة الطيبة قدرة على الإقناع أقوى من الكلمات ونور العين والشعور والإرادة.

ان هذا الكتاب يفتح الباب لكتابات عديدة في السيرة الذاتية الفلسفية في الثقافة العربية المعاصرة .